

فردانية الهوية واللغة¹

توطئة

حوّل اللغة وحوّل مكانتها... وفعلها.

يأخذ الفصل في مسألة اللغة المنطوقة² (الشفوية والمكتوبة) وطبيعتها أهميته من كونه فصلاً بين طريقتي حياة: فصل مضمون النص عن صياغته، اعتماداً على المبدأ القائل بضرورة وضع الصياغة بما يتلاءم وقواعد الكتابة، سيجعل من الصياغة شكلاً لا أهمية له في تحديد المعنى، وبحثنا عن معاني النص سيكون كبحثنا عن حقيقة. إذ أن عزل الصياغة لا يكون إلا على أساس الفرضية القائلة بأن اللغة لا أكثر من حامل، بواسطته يتم نقل المعاني من مكان إلى آخر دون أن

1. لم يكن لمسار البحث هذا أن يأخذ سيره عندي، كما هو الآن، لولا الحوار مع صديقي اسماعيل ناشف.

2. اللغة المنطوقة، كما أراها، هي إحدى أنواع النصوص، والتي تُمارس بطريقة مختلفة عن أنواع النصوص الأخرى (سلوكية، فنية بأنواعها...).

يُأثر فيها. وبعد عزّل الصياغة، لا يبقى للقارئ سوى البحث عن المعاني كما قصدها المؤلف، وفي هذا السياق تمّ الاعلان عن موت المؤلف من قِبَل رولات بارت احتذاء بإعلان نيتشه عن موت الله. (بارت، 1994)

أما إذا رأينا أنّ الصياغة هي صيغة المعنى وتلقظه كما هو عند صائغها، عندها سيُعكس النصّ فردانية مؤلفه تماما كما ستعكس قراءة النصّ فردانية قارئه. انعكاس فردانية المؤلف في نصّه يعني الاحساس بارتعاشات يده تكتب، يعني سماع خفقات قلبه في صياغاته... يعني استمرار بقاءه حيا يُرزق، يأكل ويشرب ويمارس الجنس مع نفسه ومع الآخرين. مسألة الفصل في موضوع اللغة هي مسألة حياة وموت، كما ترون.

الفردانية والجمع المجتمع دائرة، مُعلقة

"The common use of language takes place at the same level as the common use of all the objects which surround us in the society in which we were born and in which we live". (Rossi-Landi 1970:521)

التعامل مع اللغة المنطوقة كوسيط³ (Mediator)، كوساطة تتوسط اثنين أو أكثر⁴ (والوساطة تحمل من المعاني ما يُثقل من طرف إلى آخر⁵)، يُبقي النقاش، بين العاملين في

3. معنى الادعاء هذا، هو أنّ اللغة لا تتعدى كونها أداة كما تعريف الأداة عند ماركس:

"An instrument of labour is a thing, or a complex of things, which the labourer interposes between himself and the object of his labour, and which serves as the conductor of his activity. He makes use of the mechanical, physical, and chemical properties of some substances in order to make other substances subservient to his aims." (Marx 1906: 199)

4. سيرل (Searle) وأوستن (Austin) وغيرهم ممن يتحدثون عما يُسمى «السلوك الكلامي» (Speech action)،

يرون أنّ اللغة، بالاضافة لكونها وسيطا، تقوم أحيانا بدور تمثيلي: (to perform)

"Suppose, for example, that in the course of marriage ceremony I say, as people will, 'I do' - (sc. Take this woman to be my lawful wedded wife). [...] Or again suppose that I have the bottle of champagne in my hand and say 'I name this ship the Queen Elizabeth'. [...] When say 'I name this ship the Queen Elizabeth' I do not describe the christening ceremony, I actually perform the christening; and when I say 'I do' [...], I am not reporting on a marriage, I am indulging in it." (Austin 1970:235)

أوافق على شيء من ادعاء أوستن، أو غيره ممن يتحدثون عن «السلوك الكلامي»، القائل بأن اللغة تكون أحيانا سلوكا، مُجريا بعض التغييرات فيه، الأمر الذي سأحدث عنه لاحقا (أنظر بهذا الخصوص: Bourdieu 1991:107-108).

5. النقاش حول علاقة المعنى بشكل الكلمة أو بنغمتها (هل هي Symbol أم Icon)، لا يعني، في النهاية، سوى التأكيد على كون اللغة حاملا: حمار يحمل بضاعة يُنقلها من مكان إلى آخر أم هدية مغلّفة بورق وشريط أحمر يتلاءم ولون الهدية وشكلها ونوعها (بهذا الخصوص، أنظر إلى بيرس 1940)، وكوّننا نقول الأشياء أيضا كتابة، لا يجعل من مادة الورق سوى وسيطا.

موضوع اللغة، مُقتصرًا على طبيعة هذا الوسيط⁶. فنرى، على أحد طرفي النقيضين، شتراوس (Strauss) الذي يبدأ من الفرضية القائلة أنّ العقل البشري واحد أينما كان، وأن الحضارات (Cultures) ليست سوى تجسيدات مُختلفة لمميزات تفكيرية مُطلقية مجردة، مُشتركة لجميع البشر، وأنّ هذه الحضارات تتفاعل فيما بينها بواسطة الأفراد، (Levi-Strauss, 1966) أي أنّ أفراد المُجتمع البشري هم الحامل والأداة⁷. على الطرف الثاني، يقف كلٌّ من يحمل الادّعاء بأن اللغة هي الأداة والوسيط: في الحالتين، على طرفي النقيض، هنالك حامل أو وسيط يتوسّط موجودين أو أكثر⁸.

سأحاول، في مساحة مكانية زمنية صغيرة، أن أعرض خطوطا عريضة أوّلية لتوجّه آخر، لتوجّه لا يرى اللغة وسيطا ولا يرى ممارستها ممارسة لوسيلة أو أداة، بل ممارسة علاقة ممارسة فردانية، مبيّنا معنى الادّعاء واستقاطاته على فعل التأليف وعلى فعل القراءة.

الفردانية، بين حضور بين غياب.

فردانية المُؤلف، هو⁹ الفاعل، لا نهائية الحدود من ناحية، وبشكل تناقضي، مُحدّدة. تتبّع لا نهائية الفردانية، أوّلا، من كونها أبداً غير تامّة التبلور، فهي دائمة التغيّر تراكمياً، أي أنّها أبداً في صيرورة تراكمية مُتحوّلة¹⁰. وبكونها مُتحوّلة، ثانياً، فهي تتضمن المُمكن، والمُمكن، من حيث تعريفه، غير حتمي الحدوث وغير مُحدّد المعالم. وبكونها تتضمن المُمكن اللا حتمي الحدوث وغير مُحدّد المعالم، ثالثاً، فهي تحمّل بُعديّ الحضور والغياب في آن: ما هو موجود في حيز الواقع وقد يكون ظاهراً وما هو موجود في حيز المُمكن وقد يأخذ تجسّده وقد يظهر. وهنا عليّ الإشارة إلى أن الغياب، في سياق الحديث عن المُمكن ضمن لا نهائية حدود الفردانية، يحمّل من المعاني أكثر من واحد، يعنيني في هذه اللحظة:

6. لا أقول أن هذا النقاش ليس ذا أهمية ولا أقول أنني لن أعتد بعضه لشرح فهمي وموقفي من اللغة. ما أقوله، ببساطة، إنّ النقاش لم يتعدّ حدود طبيعة هذا الوسيط (Duranti 1997) يُقدّم عرضاً وافياً، مُختصراً، لمعظم التوجّهات ولنقاشاتها (بين بعضها) والذي أحيانا يكون سلوك (أنظر ملاحظة رقم 4).

7. يسبق شتراوس الكثير من أعلام الفكر الفلسفي خاصة والانساني عامة ممن يحمّل مثل هذه الفرضية، مثل الفيلسوف الألماني هوسرل والأب الروحي للمذهب الشكّي (Scepticism) الفرنسي ديكارت.

8. هذا صحيح أيضاً بالنسبة لمن يتحدث عن دلالية اللغة (Indexicality) أو حتى عن قصديتها (Intentionality). فكلا التوجهين يتعاملان مع دلالتها وقصديتها كوسيط، أي أنّ الدلالية والقصدية مُتضمّنة داخل اللغة كوسيط.

9. أوّ الأنا أوّ أيّ فاعل أو ضمير فاعل آخر... غير أنّ استعمال ضمير الغائب «هو» لم يكن مُصادفة، بل بقصد الإشارة إلى الغائب الحاضر أوّ إلى الحاضر الغائب، إذ أنّه يحمّل من الغياب ما هو حاضر، تماماً.

10. تراكمها وتحوّلها هو مسار حركتها تغيّرها، الحادث في تفاعلاتها مع كون لا نهائي الحدود بدوره.

– حضور (Presence) المُمكن المُمكن أن يأخذ تجسده وأن يظهر (to appear).

فليس كل ما هو موجود في حيز المُمكن يدخل إلى حيز الواقع ويأخذ تجسده، وليس كل ما يدخل حيز الواقع يأخذ انعكاسه ظهوراً. إذ أن العلاقة بين الحضور والظهور ليست علاقة حتمية، بل مُمكنة.

أما حدوديتها، فتنبع من كونها تاريخية ومن عدم إمكانية الإشارة إليها إلا هناك، في ماضيها. هناك، في ماضيها، هي لا تتضمن كل ما هو مُمكن، أي أن حركتها تغيرها فيها نفي أو عدم مستمر لإمكانية مُمكنات تماماً كما فيها فتح مستمر لإمكانية مُمكنات... حركة التراكم التحول، حركة التغير هي حركة إغلاق وفتح في آن، وهكذا يُعدي الحضور والغياب فيها يُغلقان يُفتحان، أو بالحرى يُغلقان مُفتوحين¹¹. وهنا أيضاً، يأخذ الغياب من المعاني أكثر من واحد، يعنيني في هذه اللحظة مل يتصل بحركة الأغلاق فيها:

– حضور ما ليس ظاهراً وكان من المُمكن أن يظهر.

بكون الفردانية فردانية تراكمية متحوّلة فهي مفتوحة من أربع جهاتها على أوسعها، أي أنها تتحرك – تُجسد لا إغلاق، وبهذا فإن حركتها كونية... لا زمانية لا مكانية. لا زمانية لا مكانية حركة الفردانية تتضمن الغياب بمعنى إضافي:

– حضور ما ليس من المُمكن أن يظهر.

لتوضيح الفكرة أقول، رغم لا نهائية المُمكنات الموجودة في فضاء الفردانية، من حيث كمها ونوعها، فهي لا تشمل ما ليس مُمكناً نسبة لتراكمية الفرد في نقطة تحويلية معينة. بهذا المعنى، اللا نهائية، هنا هي نهائية... الخط الفاصل ما بين المُمكن وما ليس مُمكناً هو خط الحدود المُوطّرة للفردانية في تلك النقطة التراكمية التحوّلية. ولكن الهو، من الناحية الأخرى، يتراكم ويتحوّل ضمن تفاعلاته أيضاً مع اللا مُمكن الحاضر خارج حدوده، أي أن اللا مُمكن هو أحد العوامل الفاعلة في صيرورته. وبوصفه كذلك، فهو حاضر في حيز الفردانية كانعكاس لتأثر. الأمر الذي يعني أن الفردانية تتضمن داخلها شيئاً من ضدها، شيئاً يُهدّد وجودها حد نفيها. ما يُحدّد نوع التأثير وشكله وطبيعته، هو اللا مُمكن وهو تراكمية الفردانية في نقطة تحويلية معينة ضمن التفاعل العيني الحادث بينهما.

تجسد الفردانية، يعني إغلاقها، يعني إدخالها إلى حيز اللا حركة، إلى حيز السكون، ولكنه إغلاق وسكون لكون... مع دخول الفردانية إلى حيز الساكن، يُغادرها كل مُمكن لم يأخذ

11. تمييز زمنية اللا نهائية عن زمنية الحدودية يمكننا من الحديث عن فعل التأليف وتمييزه عن فعل القراءة بشكل أوضح، وإن كنت لا أؤمن بوجود قراءة – سأعود لهذين الموضوعين لاحقاً.

مكانا في حيِّز الفردانية وكل ما ليس من الممكن.

للتأكيد، تحمّل الفردانية في حركتها، تراكماتها وتحولاتها:

- الممكن، المتجسّد الظاهر.
- الممكن، المتجسّد غير الظاهر.
- الممكن، غير المتجسّد غير الظاهر.
- اللا ممكّن، المتجسّد انعكاسا لتأثّر، وقد يكون ظاهرا وقد يكون غير ظاهر.

وتحمّل، في تجسّدها:

- المتجسّد الظاهر.
- المتجسّد غير الظاهر.
- المتجسّد انعكاسا لتأثّر ضمن تفاعل مع اللا ممكّن، وقد يكون ظاهرا وقد يكون غير ظاهر.

السؤال المطروح هنا هو، ما هي استقطابات معنى الفردانية، هو، كما تمّ تحديدها على فعل التلقّف، على ممارسة اللغة من فعل تأليف وفعل «قراءة»¹²؟

علاقات الإنسان... لغات

بوصف اللغة، عند ممارستها، تجسيدات لذات¹³... تجمع الإنسان بذاته أحيانا وبالآخر أحيانا أخرى، فهي موضّعة لأناه¹⁴ أمام أنا الآخر. موضّعة الأنا أمام الآخر هو إدخاله في تفاعل، هو إدخال لما هو في تبادلية تأثّر.

لست أرغب الدخول في تحليل ما يجعل من كلّ تبادلية تأثّر علاقة، أيّ كان نوع التبادلية وشكل التّأثّر. أكتفي، لإتمام الفكرة ولبلورتها، بالقول إنّ ما يجعل من التّأثّر علاقة هو التبادلية المتضمّنة بالحدث، وإنّ ممارسة اللغة، بكونها تتضمّن تبادلية تأثّر¹⁵ داخلها، كحدث، فهي علاقة.

12. سأكتفي في الوقت الحاضر باستعمال المزدوجين لأشير إلى تحقّطي من استعمال الكلمة قراءة، إلى حين تعريفها أو توضيح فهمي لها.

13. ممارسة لذات فردانية داخل إطار ثقافي جمعي اجتماعي. وبهذا السياق، يقول هالديدي 1994، بأنّ اللغة هي المّجسّد الأساسي للوعي.

14. الأنا الذي أتحدّث عنه هو الأنا المتجسّد أو المنعكس حياة. حول اشكالية الأنا وتعرّيفها، أنظر، على سبيل المثال: بول ريكور، الهوية السرديّة 1999؛ ديرك بارفت، 1984.

15. أنا أتحدّث عن تبادلية التّأثّر وليس عن تبادلية التّأثير، والفارق جوهرية: فبينما يتحدّث الثاني عن تأثير الأشياء على بعضها (قانون السببية)، يتحدّث الأول عن انعكاس التفاعل في الأشياء (إلغاء قانون السببية).

ما أرذت قوله هو أن ممارسة اللغة ليست استعمالا لوسيلة تقف بين الانسان وذاته كما وإنها ليست وساطة تتوسط اثنين أو أكثر، بل إنها الاتصال¹⁶ بحد ذاته: فكما أنه لا وساطة تتوسط اليد وما تتحسس منه أشياء، هكذا تماما هي ممارسة اللغة... إنها، بجميع تركيباتها ومركباتها، العلاقة التي تجمع شخصا بنفسه أو بغيره...

الفارق بين الادعاء بأن اللغة قناة ووسيلة وأن ممارستها لا تتعدى عملية التوظيف والاستعمال لها وبين الادعاء بأن اللغة هي العلاقة بحد ذاتها وأن ممارستها هو الاتصال والتواصل الحادث، هو فارق جوهرى: فبينما يجعل الادعاء الأول من اللغة قناة جاهزة المعالم حاضرة التفاصيل للاستعمال (من مرادفات وقواعد لغة وقواعد كتابة) دون أن يرتبط أو يتأثر استعمالها بالشخص الذي يقوم بممارستها¹⁷، يفتح الادعاء الثاني الأبواب أمام الأفراد لممارسة انهم، ذاتيتهم وفرذانيتهم (Identity) كما هي حين الممارسة، حتى في تعاملهم مع قواعد اللغة والكتابة، الأمر الذي يعني تلون ممارسة اللغة بلون الأفراد على اختلاف أصباغهم¹⁸. في هذا السياق، يقول بارت (1980) بأن النص الكلامي، (كأحد أنواع النصوص) ليس بنية وإنما بنية، والكتابة هي حقل التلقظ وليس المفوظ. أي أن ممارسة اللغة، أيما كان نوع النص الممارس، هي من نوع الأفعال المستمرة، المصبوغة بألوان من ألوان فاعلها، ويكونه فعلا مستمرا فهو مفتوح (سأعود لشرح الادعاء بأن فعل التلقظ هو فعل مستمر مفتوح، مكتفيا في الوقت الحاضر بتحديده وبوضعه نصب أعيننا). تلوّن فعل التلقظ بألوان من ألوان المؤلف لا يعني، بأي حال من الأحوال، ذاتية ممارس اللغة وفرذيتها؟، أي

16. أي أن ممارسة اللغة هي دائما سلوك وليس أحيانا كما يدعي أوستن.

17. الشيء الذي يُذكرنا بالطبع بالطريقة العلمية وبأسسها التجريبية، الأمر الذي لم ينته النقاش حوله بعد (أنظر بهذا الخصوص: سالم يفوت، 1986؛ توماس كون، 1992).

18. ضمن وظائف اللغة المنطوقة، كما تعريفها المتداول، وصف الموجودات كما وجودها وترتيبها، وصف تمثيلية (representation) العلاقة حد المطابقة، حتى أن أينشتاين رفض الأقرار بموت الموضوعية (معرفة الأشياء كما هي) أو حتى التفكير بما من الممكن أن يتعارض معها (أنظر: تولمان Tolmin)، 1970 وهايزنبرغ (Heisenberg)، 1949). السؤال المطروح هنا هو، هل العلاقة بين الوصف اللغوي وبين الموجودات الموصوفة هي حقا علاقة تمثيلية، بل وهل بإمكانها أن تكون علاقة تمثيلية؟ هل يُمثل الأنا المتلقظ الأنا المعاش؟ وهل تُمثل الجملة «سطح المائدة أملس» سطح المائدة؟ فإذا كان الجواب نعم، عندها علينا أن نجد تفسيراً لنفي إجابة نملة تقول «إن سطح المائدة (نفس المائدة) كما هضاب».

ادعائي يقول، إن الجملة «سطح المائدة أملس» هي تحدت الأشياء وهي ببنيتها وهي ترتيبها، أي أننا نحدث ونبئين ونرتب ما ينعكس من الأشياء كما ينعكس في تفاعلاتنا مع ما يحيطنا. والأنا المتلقظ، ليس فقط لا يُمثل الأنا المعاش بل حتى أنه لا يُحدث ولا يُبين ولا يُرتب كل ما هو الأنا المعاش، إذ أن الأنا المتجسد حياة أو المعاش هو كل ما يُدركه وهو كل ما لا يُدركه الانسان.

أنتني لا أضع فردية ممارسة اللغة (Private practicing language) مقابل الممارسة الجماعية (Public practicing language)، بل أتحدث عن فردانية الممارسة (practicing Identity) داخل فضاء اللغة العام، والذي يتركب، بين الأشياء التي يتركب منها، من مفردات وأفعال زمنية الصيغ وقواعد كتابة وقواعد لغة، أنا أتحدث عن فردانية ممارسة هذه المركبات كما هو المؤلف، كما هي فردانية المؤلف¹⁹.

«القواعد»، يقول هاليدي، «هي الحد المشترك بين المعنى والتعبير»²⁰.

كي أتمكن من قبول قول هاليدي علي أن أضيف، بأن القواعد هي الحد المشترك بين المعنى والتعبير كما يرى المعنى ويدركه عقل مؤلف النص وشعوره. أي أن المعنى، كما هو عند المؤلف، عليه أن يحدد تشكل النص وتلفظه²¹، وعندها يأخذ فعل التلقظ فردانيته كما هي فردانية الفاعل²².

أن يأخذ فعل التلقظ فردانيته كما فردانية الفاعل²³، يعني حضورا ويعني غيابا... في ذات الآن. الحضور هو حضور المميز الظاهر في الصياغة وهو حضور المميز الغائب فيها، أي أن الغائب في الصياغة حاضر فيه، تماما. بهذا أردت القول، إن الغائب في الصياغة، تماما كما الحاضر، هو أحد عواملها المركبة لها.

فعل التلقظ، على هذا، هو فعل إظهار وتغيب، في آن واحد. وبينما فعل الإظهار هو إظهار فردانية الكاتب في الصياغة، فعل التغيب هو إظهار ما ليس من فردانية الكاتب، وتاما كما أن فعل إظهار فردانية الكاتب هو انعكاسها في الصياغة كذلك هو أيضا فعل إظهار ما ليس هو. إنعكاس فردانية الكاتب في تلفظه هو تجسيد لتعامله

19. تماما كما أنه الإنسان يُمارس عشقه كأنعكاس لآناه، هكذا هي أيضا ممارسته اللغة المنطوقة.

20. نفس المصدر السابق.

21. لم أقل «عليه أن يحدد تشكل النص وتلفظه» مصادفة، إذ أن ما حدث مع اللغة ومع ممارستها أمر في غاية الغرابة. فقواعد اللغة، مثلها كممثل قواعد الكتابة، جاءت كي تخدم صياغة المعنى بجعله قابلا للتداول، أي أنها جاءت مع وظيفتها تعريفيا. ولكنه، بعد أن تحول التعامل مع اللغة ومع ممارستها وبدأ يكون كتعامل مع وسيلة وأداة أزلية الملامح أزلية الطباع، مُحدد المعالم مُحدد الاستعمال، بدأت قواعد اللغة تسير إلى جمودها وسكونها وبدأت تأخذ وظيفة غير الوظيفة التي جاءت تؤديها، فاعلة بالمعنى أفعال غير أخلاقية مُشينة... فبدل أن تخدم المعنى بصياغته أصبحت تسيطر عليه بتفاصيله، مُزيلة ما ليس يلائمها مُضيفة ما يُناسبها، مُحددة تشكله وتلفظه على طريقته... وهكذا قضت، بسكونها، على المعنى وعلى فردانية صياغته تماما كما قضت على نفسها. ليس الموت سوى فُقدان وسكون.

22. من هنا، إن كانت اللغة عمياء، كما يقول بارت، فإن تجسيداتنا هي أعينها المفتوحة على وسعها...

23. أنظر إلى «الفردانية، بين حضور وبين غياب»، ص: 11-12 من هذا المقال.

مع اللغة وهو ممارسته لها²⁴، هو كَيْفِيَّةٌ تَلَفَّظَهُ²⁵ للمعنى، كما هو عنده، مُوظِّفاً مُرَكِّباتها من قواعد ومُفردات...

تَشَكَّلُ التَّلَفُّظُ (تَوْظِيفُ مَرَكِّبَاتِ اللُّغَةِ بِمَا يَحْدُمُ تَلَفُّظَ المَعْنَى كما هو عِنْدَ المَوْلفِ)، هو هو اِنْعَاسُ الفِرْدَانِيَّةِ، مِنْ ظُهْورِ وَغِيَابِ، فِي الصِّيَاغَةِ. فَعَلُ التَّلَفُّظِ وَتَشَكُّلُهُ هُوَ، كَمَا قُلْتُ سَابِقاً، مِنْ نَوْعِ الأَفْعَالِ المَفْتُوحَةِ المُسْتَمْرَةِ، أَي أَنَّهُ يَفْتَحُ الإِمْكَانِيَّةَ لِاسْتِمْرَارِيَّةِ فَعَلِ تَلَفُّظِ المَعْنَى، المَصْبُوحِ، هُوَ الأَخْرَ، بِأَلْوَانٍ مِنْ أَلْوَانِ فاعلِهِ. اسْتِمْرَارِيَّةُ فَعَلِ التَّلَفُّظِ، هُنَا، تُشِيرُ إِلَى اسْتِمْرَارِيَّةِ فَعَلِ تَخْلِيقِ المَعْنَى بَعْدَ انْتِهَاءِ المَوْلفِ مِنْ تَأْلِيفِهِ. اسْتِمْرَارِيَّةُ فَعَلِ تَخْلِيقِ المَعْنَى وَتَلَفُّظِهَا بَعْدَ انْتِهَاءِ المَوْلفِ مِنْ تَأْلِيفِهِ هُوَ فَعَلُ القَارِئِ، وَهُوَ فَعَلٌ يَخْتَلِفُ فِي جَوْهَرِهِ عَنِ فَعَلِ تَلَفُّظِ المَعْنَى عِنْدَ المَوْلفِ²⁶. أَي أَنَّهُا القِرَاءَةُ هِيَ أَيْضاً عَمَلِيَّةُ تَخْلِيقِ وَبِنْيَةِ وَتَلَفُّظِ فِرْدَانِيَّةِ، هِيَ عَمَلِيَّةُ بِنَاءِ فِرْدَانِيَّةِ لِنَصِّ جَدِيدٍ يَخْتَلِفُ عَنِ النِّصِّ المَكْتُوبِ، لَكِنَّهُ مِنْهُ وَمَشْرُوطٌ بِهِ: عِلَاقَةُ القَارِئِ بِالنِّصِّ هِيَ كَعِلَاقَةِ البَاحِثِ بِالطَّبِيعَةِ، وَفَعَلُ تَلَفُّظِ المَعْنَى عِنْدَ القَارِئِ هُوَ كَفَعَلِ البَاحِثِ عِنْدَ البَاحِثِ فِي الطَّبِيعَةِ²⁷.

24. مِنْ هَذَا المُنْظَارِ، فِي مَسْتَوَى الحَدِيثِ عَنِ فَعَلِ التَّلَفُّظِ، بِإِمْكَانِنَا رُؤْيَا مَصَادِرِ فَهْمِ رُولَانِ بَارْتِ لِفَعَلِ التَّأْلِيفِ وَلِفاعِلِهِ، المُتَمَثِّلِ فِي اإِعْلَانِهِ عَنِ مَوْتِ المَوْلفِ. إِذْ أَنَّهُا فِرْدَانِيَّةُ المَوْلفِ، مَا هُوَ وَمَا لَيْسَ هُوَ، بِإِمْكَانِهَا أَنْ تَكُونَ حَاضِرَةً تَمَامَ الحُضُورِ فِي النِّصِّ، إِنَّ اسْتِرْجَاعَ فَعَلِ الكِتَابَةِ مَعْنَاهُ الَّذِي كَانَ. أَي أَنَّ المَوْلفِ، بِإِمْكَانِهِ إِجْرَاءَ عَمَلِيَّةِ إِحْيَاءِ لِنَفْسِهِ وَلِفَعْلِهِ تَلَفُّظَهُ، إِنَّ هُوَ فَقَطُ أَرَادَ.

25. اسْتِعْمَالُ بَارْتِ لِلْفَعْلِ «تَلَفُّظٌ» جَاءَ كَيْ يُعِينَهُ عَلَى دَفْنِ المَوْلفِ عَمِيقاً تَحْتَ التُّرَابِ بَعْدَ إِعْلَانِهِ أَنَّهُ مَاتَ، وَذَلِكَ بِفَتْحِ أَبْوَابِ فَعَلِ التَّأْلِيفِ وَبِشَقِّ الطَّرِيقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ فَعَلِ القِرَاءَةِ، مُعْطِياً فَعْلَ تَلَفُّظِ المَعْنَى وَفَعْلَ اسْتِخْرَاجِهَا وَاسْتِنْبَاطِهَا مِنَ المَتَلَفُّظِ نَفْسِ المَعْنَى. يَرْجِعُ، هَذَا الفَهْمُ، إِلَى الإِرْثِ التَّقَافِيِّ الغَرْبِيِّ المُتَكَبِّرِ، المَوْمنِ بِنَفْسِهِ وَبِذَاتِهِ، الوَائِقِ مِنْ عَمَقِ التَّمَاثُلِ بَيْنَ «مَعْرِفَتِهِ» وَالوَاقِعِ، المُتَأَكِّدِ مِنْ عَمَقِ التَّمَاثُلِ بَيْنَ مَعْنَى إِنتِاجِهِ هُوَ لِلْمَعْنَى (مَعْنَى فَعَلِ اسْتِنْبَاطِ المَعْنَى، فِي هَذِهِ الحَالَةِ) وَبَيْنَ مَعْنَى اإِنْتِاجِيَّةِ الوَاقِعِ لِعِلَاقَاتِهِ (مَعْنَى فَعَلِ تَلَفُّظِ المَعْنَى). إِغْيَاءُ الإِخْتِلَافِ بَيْنَ مَعْنِييِ الفَعْلَيْنِ، هُوَ إِغْيَاءٌ وَهُوَ اإِعْتِيَالُ: إِغْيَاءُ الإِخْتِلَافِ بَيْنَ مَعْنَى فَعَلِ تَلَفُّظِ المَعْنَى وَبَيْنَ مَعْنَى فَعَلِ اسْتِنْبَاطِهَا هُوَ فَعَلٌ قَتْلٌ وَاعْتِيَالٌ لِلْمَتَلَفُّظِ وَلَيْسَ فَعَلٌ إِعْلَانٌ عَنِ مَوْتِهِ.

مُثِيرٌ لِلإِهْتِمَامِ وَمُؤَلِّفٌ لِلنَّظَرِ كَيْفَ تَمَكَّنَ بَارْتٌ مِنْ اإِعْتِيَالِ المَوْلفِ دُونَ القَضَاءِ عَلَى فَعَلِ التَّأْلِيفِ، إِذْ أَنَّ الجَذْرَ وَاحِدٌ... أَمْ أَنَّهُ لَيْسَ أَلْفٌ، مِنَ الأَلْفِ، أَوَّلِ الحُرُوفِ. إِلا إِذَا كَانَ جَذْرُ التَّأْلِيفِ وَالمَآلُوفِ فِي لُغَتِهِ وَاحِدٌ، فَيَكُونُ فَهْمِي المَعْلُوفِ لِعِلَاقَةِ المَوْلفِ بِالتَّأْلِيفِ نَاتِجٌ عَنِ قُصُورِ فِي لُغَتِنَا العَرَبِيَّةِ! إِعْلَانٌ نِيَشْتَهُ عَنِ مَوْتِ اللّهِ هُوَ إِعْلَانٌ عَنِ مَوْتِ الحَقِيقَةِ... فَعَلُ اللّهِ وَصَنِيعَتِهِ.

26. اُنْظُرْ: مَلاحِظَةُ رَقْمِ (19).

27. بِهَذَا السِّيَاقِ، اأَعْتَقْدُ أَنَّ تَسْأُلاً، سَالمَ يَفُوتُ، (مَصْدَرُ سَابِقِ، ص 34) مِنْ يُقَرَّرُ صَدَقَ القَضَايا العِلْمِيَّةُ أَوْ عَدَمَ صَدَقِهَا؟ هَلْ هُوَ التَّجْرِبَةُ حَقّاً أَمْ النُّظْرِيَّةُ؟ هُوَ تَسْأُلاً أَحَادِي الأَتْجَاهِ وَبِالتَّأْلِيفِ مَعْلُوفٌ. كَيْ يَأْخُذُ السُّؤَالُ كُلَّ اتَّجَاهَاتِهِ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ: مَا هِيَ طَبِيعَةُ نَتَائِجِ البَحْثِ وَمَاذَا تُشَكَّلُ؟ أَوْ، مَا هُوَ دَوْرُ كُلِّ مَنْ مَوْضُوعِ البَحْثِ (Object)، أَدْوَاتِ البَحْثِ (Tools) وَشُرُوطِ البَحْثِ (Primary conditions) فِي تَحْدِيدِ نَتَائِجِ البَحْثِ؟

النص المكتوب، في هذه الحالة، هو المحفز والمحدد لبناء النص الجديد من قبل القارئ. أي أن القراءة كفعل تلقظ هي فعل مشروط، هي فعل تخليق وتلقظ استنباطي، والدقة، هو المستنبط المتلقظ²⁸.

حدود المستنبط المتلقظ هي حدود المعلق، المتجسد الساكن... الماضي. أي أن فعل الاستنباط يتم في فضاء غير متحرك غير متغير، في فضاء لا يتفاعل مع غير الممكن ولا يتضمن الممكن، بل فقط الموجود في حيز الواقع بين حاضر وغائب: فعل القراءة - الاستنباط يتحرك في فضاء المتلقظ المتجسد سکونا، وبالتالي لا يمكن التعامل معه كاستمرارية لصيرورة بدأت، بل بداية لصيرورة جديدة، تعتمد في جوهرها على صيرورة كانت²⁹. الأمر الذي يعني، بين الأشياء التي يعينها، توقف البحث عما يقصده الكاتب كحقيقة، أي عن حقيقة مضمون النص أياً كان نوعه.³⁰ توقف البحث عن حقيقة، هو توقف لنوع علاقة واستبدالها بأخرى. استبدال علاقة بعلاقة هو استبدال لمفاهيم بمفاهيم، هو استبدال لفكر بآخر، أي أنه استبدال لطريقة حياة بأخرى.

28 ادعائي هذا، ليس فقط يتعارض مع ادعاء هوسرل بأن الموجودات لا تشتت وجود الوعي، بل يذهب إلى أبعد من ذلك بكثير: ادعائي هو أن الموجودات هي إحدى العوامل الفاعلة في تكوين الوعي وشكله وطبيعته (أنظر هوسرل 1967: 130، 1964: 15-16، 1931: 157).

29. وإذا كان التناص مشروطاً بوجود حركة تبادلية بين المتجسد المتلقظ (النص الساكن) وبين التلقظ الاستنباطي (القراءة الاستنباطي)، يكون، التناص، فارغ المعنى وغير قائم... إذ لا حركة تبادلية بين معلق ساكن وبين متحرك. وفتح أبواب النص من قبل القارئ المستنبط لا يجعل النص حياً يُرزق، كما ولا يجعل منه شيئاً آخر. علاوة على ذلك، تعامل القارئ مع النص، حتى وإن لم يكن فعل استنباط، لا يمكن اعتباره عاملاً مؤثراً في صيرورته: بإمكان القارئ أن يتلقظ شيئاً آخر، بإمكانه أن يحول النص إلى مادة خام وأن يتعامل معه كما يتعامل ويفعل الفنان أحياناً مع عمل لغيره... ولكنه بهذا لا يكون عاملاً فاعلاً في عمل الفنان الآخر نفسه. ما أحاول فعله هنا هو التمييز بين الاعتماد على منتوج لانتاج منتوج آخر و/أو استعماله في عمل آخر وبين تحويل العمل ذاته إلى شيء آخر.

30. وكل تعامل مع مضمون النص ومع معانيه هو بقدر ما تسمح به حدود «اللغة العامة» (Public language) كما عرفها فيتجينشتاين (Wittgenstein). أي أنه تماماً كما ليس بإمكاننا الادعاء بوجود معنى واحد للنص، كذلك الأمر ليس بإمكاننا الادعاء بوجود عدد لا نهائي من إمكانيات التفسير.

المراجع

- عمر أوغان (1996). **لذة النص أو مغامرة الكتابة لدى بارت**. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق.
- رولان بارت (1994). **نقد وحقيقة**. حلب: مركز الانماء الحضاري.
- بول ريكور (1999) «الهوية السردية»، في: ديفد وورد (محرر)، **الوجود والزمن - فلسفة بول ريكور** (ترجمة: سعيد الغانمي)، بيروت: المركز الثقافي العربي.
- توماس كون (1992). **بنية الثورات العلمية**. (ترجمة شوقي جلال)، سلسلة كتب عالم المعرفة رقم 168، الكويت: المجلس الأعلى للثقافة والفنون.
- سالم يفوت (1986). **فلسفة العلم المعاصر ومفهومها للواقع**. بيروت: دار الطليعة.
- Austin, J. L. (1970). **Philosophical Papers**. 2nd edn. Oxford University Press.
- Bourdieu, P. (1991). **Language and Symbolic Power**. Edited and Introduced by John B. -Thompson. Translated by Gino Raymond and Matthew Adamson. Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press.
- Duranti, Alessandro. (1977). **Linguistic Anthropology**. Cambridge University Press.
- Halliday, M.A.K. (1994). On language in relation to evolution of human consciousness. **Nobel Symposium 92 The relation between language and mind**. Berlin: Mouton de Gruyter.
- Halliday, M.A.K. and J. R. Martin (1993). **Writing science: literacy and discursive power**. London: Falmer Press.

Husserl, E. (1976). **Ideas**. London: George Allen & Unwin LTD. New York: Humanities Press INC.

Husserl, E. (1964). **The Idea of Phenomenology**. Martinus Nijhoff, The Hague

Husserl, E. (1931). **The Paris Lectures**. Martinus Nijhoff, The Hague

Heisenberg, V. (1949). **The Physical Principles of Quantum Theory**. Dover Publication, Le'vi - Strauss, Claude (1966). **The Savage Mind**. University of Chicago Press.

Marx, Karl (1906). **Capital: A Critique of Political Economy**. New York: Random House.

Peirce, Charles Sanders (1940). Logic as Semiotic: The Theory of Signs. In J. Buchler (ed.), **Philosophical Writings of Peirce: Selected Writings**. London: Routledge & Kegan Paul.

Smagorinsky, P. (1995). Constructing meaning in the disciplines: Reconceptualizing writing across the curriculum as composing across the curriculum. **American Journal of Education**. 103. 160-184.

Tolmin, S. [edt.] (1970). **Physical Reality**, Harper and Row Publishers.

Vygotsky, L.S. (1987). Thinking and speech. In R. W. Rieber and A. S. Carton (eds.) **The collection works of L. S. Vegotsky, Volume 1: Problems of general psychology**. New York: Plenum. 39-285.

Wells, G. (1996). Using the tool-kit of discourse in the activity of learning and teaching. **Mind, Culture, and Activity**. 3.74-101.